مواقف ابن سلول بعد الهجرة
وموقف النبيِّ صلى الله عليه وسلم منه

د. عبدالله بن عثمان الخراشي
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تتشعب أحداث السيرة النبوية، وتكثر تفصيلاتها بما يتيح للباحثين مجالاً رحبًا لدراسة هذه الأحداث وتحليلها من مختلف الجوانب، وربما يتراءى للباحثين أن موضوعاتِ السيرة قد استُكملِت، وأنها لم تعد بحاجة إلى مزيدٍ من البحث، إلا أن الواقع - ولعدة اعتبارات - يُبرز أن أحداثَ السيرة لا تزال بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الدراسات التحليلية، وطرح رؤى جديدة، وتفسيرات مقنعة لأحداث السيرة، ربما تخالف ما هو سائد ومألوف من تفسيرات.

وموضوع النفاق والمنافقين ليس بالجديد، فقد كوَّنَتْ هذه الشريحةُ عنصرًا مؤثرًا في أحداث السيرة في العهد المدني، ويُلحظ المتتبع لما كتب عن هذه الشريحة أن الحديثَ عنها منصبٌّ على آثارها السلبية، ومواقفها المُثبِّطة، ودسائسها المعاديةِ للإسلام والمسلمين، كما يلحظ أن الحديثَ عن المنافقين يتسم بالعموم دون الحديث عن مواقف أشخاصٍ معينين

بأسمائهم، ولعلَّ ذلك لأسباب عدة، ربما يأتي في مقدمتها المنهج النبوي القائم على عدم الإفصاح عن أسمائهم.

لكن الاستثناء الذي أثار الباحث هو الحديثُ الصريح عن شخصية بارزة وُصِمَت بالنفاق علنًا، وكانت محورًا لجلِّ الأحداث المَرتبطة بالمنافقين وآثارهم ومواقفهم، تلكم هي شخصية عبدالله بن أُبيّ بن سلول.

برز ابن سلول شخصية مؤثرة في أحداث المدينة، وكانت له أعمال مهمة وخطيرة ضد النبيِّ ﷺ والمسلمين، ومع ذلك يَحار الباحث في تعليل طريقة معاملة النبي ﷺ إياه وتفسيرها، تلك المعاملة المتسمة بالصبر والصفح واستثنائه من أي عقاب، ليس ذلك فحسب، بل وأبعد من ذلك حين صلَّى النبي ﷺ عليه، واستغفر له، ومنحه قميصه ليُكَفَّن فيه.

ولذا حاول الباحث دراسة شخصية عبدالله ابن سلول وتحليلها، وتتبع مواقفه طوال العهد المدني، والتحقق من هذه المواقف ومسوّغاتها، وفي المقابل تتبع ردود فعل النبي ﷺ تجاه مواقف ابن سلول، وتفسير هذه المواقف.

تعريف بشخصية ابن سلول:

لم يرد في المصادر ترجمة خاصة بابن سلول، لأنه لم يكن يعد من الصحابة لوصمه بالنفاق، ولكن يمكن جمع شتات المعلومات عن سيرته من خلال ما تناثر في المصادر.

أما اسمه فهو عبدالله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم بن الحُبلى بن غنم من بني عوف بن

الخزرج(١)، واشْتُهر بهذا الاسم نسبةً إلى جدته السَّلول أم أبي(٢)، وقيل إلى أمه سلول، وهي من خزاعة(٣)، وله من الأبناء الصحابي الجليل عبدالله(٤)، وجميلة زوجة مالك بن الدخشُم من بني عمرو بن عوف(٥)، ومليكة زوجة هلال بن أمية من الأوس، ورملة زوجة عصمة بن زيد بن مليل، وأم سعد، ويقال أم سعيد زوجة جبير بن ثابت، وجميع بناته دخلن في الإسلام(٦).

وكان من الشخصيات القريبة من ابن سلول، وربما المؤثرة فيه ابن خاله أبو عامر الراهب الأوسي، وكان متألهًا في الجاهلية وترهب، وكان يذكر النبي ﷺ، ويؤمن به، فلما بُعث النبي ﷺ حسده، وأقام على كفره، وشهد مع المشركين قتاله(٧).

---

(١) الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، تح: مارسدن جونسن، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٤م، ج١، ص١٦٦؛ ابن سعد، محمد بن منيع، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ج٣، ص٥٤٩؛ الدمياطي، أبو محمد عبدالمؤمن، أخبار قبائل الخزرج، تح: عبدالعزيز الثبيتي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٩هـ، ج٢، ص٦٩٠؛ ولتكرار اسم عبدالله بن أبي بن سلول كثيرًا في ثنايا البحث، فسنذكر اسمه عند وروده مختصرًا (ابن سلول).

(٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٦٦.

(٣) الدمياطي، أخبار قبائل الخزرج، ج٢، ص٦٩٠.

(٤) وكان اسمه الحباب وغيره النبي ﷺ إلى عبدالله. انظر الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ، ج١٢، ص١٠٦؛ الدمياطي، أخبار قبائل الخزرج، ج٢، ص٦٩٠.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٥٤٩.

(٦) الدمياطي، أخبار قبائل الخزرج، ج٢، ص٦٩٣.

(٧) الدمياطي، أخبار قبائل الخزرج، ج٢، ص٦٩٠.

تكشف المصادر عن مكانة عالية كان يتبوؤها ابن سلول قبل الإسلام حيث يعد أحد أبرز الزعامات القيادية المؤثرة في مجتمع المدينة، فهو سيد قومه، وكان - كوصف عكرمة له -: "عظيم الشأن فيهم"(٨)، وفي وصف آخر أنه: "كان في قومه شريفًا عظيمًا"(٩)، وثالث أنه: "سيد أهل المدينة لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان"(١٠)، ومما ساعد على بروزه في يثرب مقتل عدد كبير من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم يوم بعاث قبل الهجرة بيسيرٍ(١١).

على أن أقوى دليل على مكانته، هو الاتفاق على تتويجه زعيمًا للخزرج(١٢)، وفي بعض الروايات زعيمًا للأوس والخزرج(١٣)، وهذا مستبعد لأن عددًا من زعماء الأوس قدموا إلى مكة قبل الهجرة يلتمسون الحلف من قريش

---

(٨) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ، ج١٢، ص١٠٦.

(٩) الطبري، التفسير، ج١٢، ص١٠٨.

(١٠) ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٢هـ، ص٢٦٧.

(١١) ابن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م، ج٣، ص١٤٨.

(١٢) اختلفت الروايات في ذلك فقيل تتويجه على الخزرج، وقيل على الجميع، ولعل الجمع بين القولين أن اسم الخزرج كان يطلق على الأوس والخزرج. انظر ابن هشام، عبدالملك، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار البحوث العلمية، الرياض، (د. ت)، ج٢، ص٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٩٩.

(١٣) انظر ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٥٠.

على قومهم من الخزرج(١٤)، ومن المهم أن نستحضر هذه المكانة لابن سلول عند حديثنا عن مواقفه من الأحداث بعد الهجرة.

إن من ملامح شخصية ابن سلول -إذا تجاوزنا أسوأ صفاته وهي النفاق - أنه كان رجلاً ذا مواصفات جاذبة ومؤثرة، فهو رجلٌ مفرط الطول(١٥)، ومتحدثٌ مفوه، وصاحب حجة وذو رأي، وكان مرجعًا لقومه عند كل أزمة، وإليه يأوون، ويصفه الزرقاني: "بأنه وإن كان من المنافقين إلا أنه من كبار المجربين للأمور"(١٦).

كان أول ظهور لابن سلول في حروب الأوس والخزرج يوم السرارة، وهو يوم كانت فيه حربٌ شديدةٌ بين بني عمرو بن عوف من الأوس وبني الحرث من الخزرج، وكان يتزعم بني الحرث ابن سلول، واستمر في مشاركته في الحروب التالية، فتولى قيادة الخزرج في حرب الفجار الأولى(١٧).

كان ابن سلول يرتبط بتحالف قوي بإحدى أكبر قبائل اليهود وأقواها في يثرب، وهم بنو قينقاع الذين وصفوا بأنهم

---

(١٤) ابن هشام، السيرة ،ج٢، ص٣٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٤٨.

(١٥) ابن حجرالعسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تح: عبدالعزيز بن باز، دار الفكر، بيروت، (د. ت)، ج٣، ص١٣٩.

(١٦) الزرقاني، محمد بن عبدالباقي، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، تح: محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، ج٢، ص٣٥٩.

(١٧) سالم، النفاق والمنافقون، ص٤٢.

أشْجع يهود(١٨). وشكَّل هذا التحالف دعمًا قويًا لابن سلول ولقبيلته الخزرج.

كان ابن سلول يفتقر إلى بعض القيم السلوكية، فقد كان له جوار مسلمات يُكرِهُهن على البغاء لضريبة يأخذها منهن، بل وأرادَ إجبار إحداَهن على أن تخضع لأسير من قريش راودها عن نفسها رجاء أن تحمل منه فيطلب فداء ولده، وقد نزل القرآن(١٩) بتحريم ذلك فيما بعد(٢٠).

أما وفاته، فجاءت أحداثها مؤثِّرة، ففي أواخر شهر شوال من السنة التاسعة للهجرة مرض ابن سلول مرضه الأخير، فكان النبي ﷺ يعوده على الرغم من جميع مواقفه المعادية سابقًا.. وقبيل وفاته دعا ابن سلول النبي ﷺ، فلما جاءه عاتبه ﷺ لحبه ليهود وولائه لهم، فرد عليه بعبارات تحمل في طياتها الندم قائلاً: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتوبِّخني.. ثم سأله أن يعطيه قميصه ليُكفَّن فيه فأجابه(٢١). وبعد عشرين يومًا من مرضه، وفي أوائل شهر ذي القعدة من العام التاسع للهجرة توفي ابن سلول(٢٢)، وبعد وفاته طلب ابنه عبدالله من رسول الله ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفنه به، وأن يُصلِّي عليه ويَسْتغفر

---

(١٨) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٢٩.

(١٩) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ..﴾ [النور: ٣٣].

(٢٠) الواحدي، علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، تح: كمال زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣٣٧.

(٢١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص١٠٥٧؛ الطبري، التفسير، ج٦، ص٤٤٠.

(٢٢) الواقدي، المغازي، ج٣، ص١٠٥٧.

له...، ولما أراد النبيُّ ﷺ أن يصلِّي عليه جذبه عمر بن الخطاب، وقال له: أليس الله قد نهاك أن تُصلِّي على المنافقين؟ فقال: أنا بين خِيرَتين أَستَغفرُ لهم أو لا أستغفر، فصلَّى عليه(٢٣)، وفي رواية أخرى أنه لما توفي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه يريد الصلاة، فأراد عمر بن الخطاب ردَّ النبي ﷺ عن ذلك، وذكره بأقوال ابن سلول.. فرد عليه النبي ﷺ بقوله: يا عمر إني خُيِّرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يُغفر له لزدت عليها فصلى عليه(٢٤)، وفي رواية ثالثة أنه ﷺ قام يصلي عليه فأخذ عمر بثوبه، فقال: تصلي عليه وهو منافق؟ وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟ قال: إنما خيرني الله أو أخبرني، فقال تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ..**﴾(٢٥)، فقال: سأزيد على سبعين، قال: فَصلَّى عليه رسول الله وصلى معه من حضر من الصحابه ثم أَنزَل الله جلَّ وعَلا: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾(٢٦).

أطال النبي ﷺ الصلاة على ابن سلول، ثم حُملَت جنازتُه إلى قبره، وشهد الدَّفنَ جمعٌ من المسلمين مع رسول الله ﷺ،

---

(٢٣) الرواية للبخاري ، انظر ابن حجر، فتح الباري، ج٣، ص١٣٨؛ الطبري ، التفسير، ج٦، ص٤٣٩.

(٢٤) رواية البخاري، ابن حجر، فتح الباري، ج٣، ص٢٢٨؛ الواحدي، أسباب النزول، ص٢٦٢.

(٢٥) سورة التوبة، الآية ٨٠.

(٢٦) ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٣٣٧؛ الطبري، التفسير، ج٦، ص٤٣٩. والآية في سورة التوبة، ٨٤.

ونَزل قبرَه ابنُه عبدالله، وعُبادة بن الصَّامت، وأوس بن خولي، وأَدْلاهُ عليهم النبي ﷺ وكبارُ الصحابة(٢٧).

مواقف عبدالله ابن سلول من الأحداث بعد الهجرة، وموقف النبي ﷺ منه:

تأتي مواقف ابن سلول من الأحداث في العهد النبوي ضمن إطار موقف المنافقين بشكل عام(٢٨)، لكن لأهمية شخصية ابن سلول، ومكانته بين قومه، ومنزلته القيادية المؤثرة - سلبًا أو إيجابًا - في الأحداث أصبح اسمه يتكرر كثيرًا في أحداث العهد المدني حتى أطلق عليه لقب "رأس المنافقين"(٢٩)، بل إن كثيرًا من الآيات الخاصة بالمنافقين تتحدث عنه.

على الرغم من أن السمة العامة لمواقف ابن سلول بعد الهجرة هي الغدر والتثبيط، والإساءة للنبي ﷺ، والتآمر على المسلمين، والتواطؤ مع اليهود، إلا أن الملحوظ على هذه المواقف أنها تظهر بقوة في بعض المواطن، وتتوارى في مواطن أخرى، وفاضت في المصادر روايات مواقفه السلبية

---

(٢٧) الواقدي، المغازي، ج ٢، ص١٠٥٩.

(٢٨) ليس هناك حصر دقيق للمنافقين إلا أن ابن هشام حصر من سمي منهم فعد ٢٤ رجلا. انظر ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١٤١-١٤٨؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج١، ص٢٥٣-٢٥٤. ولا شك أن عددهم أكبر من ذلك، والحصر هنا لمن عرف منهم فقط من خلال أسباب نزول الآيات فيهم.

(٢٩) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١٤٨؛ الواحدي؛ أسباب نزول القرآن، ص٤٥١؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج١، ص٢٥٤.

من الأحداث، ويقابلها رواياتٌ أخرى تبرز هذه المواقف بشكل آخر، قد تسوغ هذه المواقف السلبية وتُخليه من مسؤوليتها، بل وأحيانًا تُظهر أدوارًا إيجابية لابن سلول على الرغم من نفاقه.

وفي المقابل فإن السمة العامة لردود فعل النبي ﷺ من ابن سلول، ومواقفه هي: الصبر عليه، وتحمل أذاه، واستثناؤه من العقوبة، بل وصل الأمر إلى حد الصلاة عليه والاستغفار له.!، وكانت الروايات تذكر مبررات موقف النبي ﷺ منه، فمنها ما كان بتوجيه رباني من خلال نزول الآيات الكريمات، ومنها ما كان نابعًا من سياسة النبي ﷺ في تقدير الموقف، لكن هذه المبررات - على الرغم من وجاهتها - تحتاج إلى مناقشة، وربما إلى البحث عن أسباب أخرى بقراءة تحليلية فاحصة لتطور الأحداث. خاصة أن المتتبع لمواقف الطرفين يلحظ أنها كانت متدرجةً، ومتناسبةً هي وتطور الأحداث بعد الهجرة، وسنحاول في الصفحات القادمة تتبع مواقف ابن سلول من بدء الدعوة وقبل الهجرة إلى المدينة، وموقف النبي ﷺ منها.

مواقف ابن سلول من الأحداث بعد الهجرة:

على الرغم من بروز شخصية ابن سلول فإن المصادر لا تحدثنا عن حياته ومواقفه من الدعوة قبل الهجرة في أحداثٍ كان يُتوقعُ أن يكون له أثر فيها، من أهمها الموقف من مصعب بن عمير حين قدم المدينة بعد بيعة العقبة الأولى، والتقى عددًا من زعمائها، وعلى رأسهم سعد بن معاذ، وسعد

بن عبادة، وأسيد بن حضير، في القصة المشهورة التي انتهت بإسلامهم(٣٠)، حتى قيل إنه: "لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون"(٣١)، ومن المعروف أن انتشار الإسلام، واستمالة زعماء من الأوس والخزرج إليه، لن يكون أمرًا مقبولاً عند ابن سلول، وربما يرى فيه خطرًا على أهل يثرب، ويستعدي قريشًا والقبائل عليها، كما أنه في الوقت نفسه يُعَدُّ تهديدًا لمشروع توليه زعامة الخزرج، على الرغم من كل ذلك لم يكن لابن سلول أي موقفٍ معادٍ تجاه مصعب بن عمير، ولا نعلم هل كان له موقف معادٍ أهملت المصادر ذكره، أو أنه حقًّا لم يتخذ موقفًا عدائيًا من مصعب بن عمير، وهو ما يحتاج إلى تعليل.

هناك احتمال تفسره بعض الروايات من أن انتشار الإسلام في المدينة، وأثر مصعب بن عمير كان يتم سرًا، فيذكر أبو نعيم: "أن الأنصار بعد عقدهم بيعة العقبة الأولى رجعوا إلى قومهم، فدعوهم سرًا.. حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس... ثم بعثوا إلى النبي ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من قبله... فبعث مصعب بن عمير، فجعل يدعو الناس سرًا فيفْشُو الإسلامُ، ويكثُر أهلُه وهم مُسْتَخْفُون بدعائهم(٣٢)،

---

(٣٠) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٣-٤٥؛ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٢٣٦.

(٣١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٦؛ ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٢١؛ ابن حبان، السيرة، ص١٠٨.

(٣٢) الأصبهاني، أبونعيم، دلائل النبوة، تح: محمد قلعجي وعبدالبر عباس، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٦هـ، ج١، ص٣٠٧.

وهذا الاحتمالُ - في نظر الباحث - غير وارد، إذ لا يمكن توقع سِرِّية الجهد الذي قام به مصعب، خاصة وأنَّ بعض المتغيرات كانت كبيرةً، ويستحيل إخفاؤها؛ كإسلام بني عبدالأشهل، وصلاة مصعب بن عمير بالمسلمين بيثرب الجمعة علنًا(٣٣)، وفُشو الإسلام بالمدينة.

من الاحتمالات الواردة عن تواري أي عمل عدائي لابن سلول أنه لم يَقْدُرْ أثر مصعب بن عمير حق قَدْرِه، ولم يكن يتوقع ما يمكن أن تَؤُولَ إليه الأمور، من أن إسلام هَؤُلاء يُمكن أن يكون خطرًا يستدعي اتخاذ موقف معادٍ له قد يُفسد مشروع زعامته بالدخول في نزاع مع زعماءِ الأوس الذين استجابوا لدعوة مصعب بن عمير. واحتمال آخر، وهو الأقرب أن ابن سلول عجز عن إخفار هؤلاء الزعماء الذين لجأ إليهم مصعب بن عمير ومناصبتهم العداء.

وفي بيعة العقبة الثانية شارك سبعون رجلاً جُلُّهم من الخزرج، ولم يُشعَر بها ابن سلول، فلما فشا أمر البيعة عاتبتهم قريش، فأخذ مشركو الأوس والخزرج يحلفون لهم ما كان من هذا من شيء.. وكان ابن سلول يقولُ منكرًا للموقف: "هذا باطل وما كان من هذا، وما كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني، وصدق لأنهم لم يُعْلِموه"(٣٤)، ومقولته هذه تؤكد مكانته عند قومه، ولكن: ألا يمكن أن يثير سؤال قريش

---

(٣٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٣.

(٣٤) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٢٣؛ ابن هشام السيرة، ج٢، ص٥٧.

شكوك ابن سلول، وهو المطلع على أثر مصعب في نشر الإسلام في المدينة.. ؟ ربما يكون ذلك إلا أن ابن سلول لم يكن يتصور أن تصل الأمور إلى حد إقدام قومه على خطوة كهذه، وهو يثق بمكانته عندهم، وقد اعتاد منهم رد الأمر إليه، ولكن مالم يكن يدركه ابن سلول ويستوعبه هو المتغير الجديد على قومه المتمثل بإسلامهم الذي حجزهم عن إفشاء أمر البيعة، وقد أدرك فيما بعد حين بدأت وفود المهاجرين تترى على المدينة أن قومه بالفعل بايعوا النبي ﷺ دون أن يُؤامِروه، وافتاتوا عليه، وهذا الموقف سيزيد من تأزيم موقفه من النبي ﷺ والمهاجرين.

وبعد أن تقرر أمر الهجرة بدأت طلائع المهاجرين تفد على المدينة في مشهدٍ غير مألوف، فأتباع أقوى قبائل الجزيرة العربية - قريش- أخذوا يتوافدون على المدينة أفرادًا ومجموعات، وبعدها بمدة وجيزة يلحق بهم النبي ﷺ ، وليس بخاف تبعات هذا الأمر الخطير والمفاجىء لابن سلول.

إن موقع ابن سلول القيادي في مجتمع يثرب يحتم عليه - وهو يستحضر اتهامات قريش لهم أيام بيعة العقبة الثانية - أن ينظر إلى هجرة المسلمين من قبيلة قريش، وإيواء النبي ﷺ على أنه حدث يخل بتوازن القوى في المدينة، كما أنه على المدى البعيد سيؤدي إلى تكوين قوة جديدة من المهاجرين والأنصار تتسيد الموقف بالمدينة على حساب القوى المحلية السابقة.

من جانب آخر يدرك ابن سلول أن هجرة المسلمين ستؤلّف خطرًا على أمن المدينة، وذلك باستعداء قريش والقبائل، وهو

ما أكده العباس بن عبادة عند عقد البيعة الثانية بقوله:" إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود"(٣٥)، أو بقطع العلاقة باليهود المقيمين بالمدينة، وهو ما عناه أبو الهيثم بن التيهان بقوله:" إنا قاطعون فيك - أي في رسول الله ﷺ - حبالاً بيننا وبين الناس أي اليهود(٣٦)، كما أن مَقدِم النبي ﷺ لن يكون محل ترحيب القبائل اليهودية المتمكنة في المدينة، والمرتبطة بأحلاف مع الأوس والخزرج، وبين الفريقين مصالح مشتركة.

لم يكن خافيًا مشهد الأنصار وهم يخرجون كل يوم انتظارًا لمقدم رسول الله ﷺ، ثم فرحتهم بقدومه، ويصف أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا المشهد بقوله: "وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد"(٣٧)، وبعد وصول النبي ﷺ اشتد التنافس على استضافته ونصرته، واعتراض طريقه ، فلا يمر بدار من دورهم إلا قالوا: "هلم يا نبي الله إلى القوة والمنعة والثروة "(٣٨).

لا يمكن لابن سلول الزعيم الطموح الذي كان موعودًا برئاسة قومه أن يرى هذا المشهد دون أن يتميز غيظًا، أو يتأجج قلبه حقدًا وحسدًا.

---

(٣٥) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٥٥.

(٣٦) الطبري، التفسير، ج٣، ص٣٩٥.

(٣٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٩٧.

(٣٨) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١١٢؛ ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٣٦؛ ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تح: عزيز بك، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ص١٤٢.

إن ممارسة النبي ﷺ بعد وصوله مهمات قيادة المجتمع الجديد أوجدَ ضغطًا نفسيًا وقاتلاً على ابن سلول الذي يرى أن النبي ﷺ سلب الزعامة منه، وهذا الشعور وتبعاته لا بد أن نأخذه بعين الاعتبار في تفسير مواقف ابن سلول من النبي ﷺ والمسلمين، وهذا ما كان يدركه النبي ﷺ، ويؤكده زعماء الأنصار في أكثر من موطن، بل إن تعبير سعد بن عبادة كان بليغًا حين قال: "لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِق بذلك"(٣٩)، ومع ذلك يجب ألاّ نغفل أسبابًا أخرى في تفسيِر مواقف ابن سلول، فالمتغيرات في المدينة بعد الهجرة تمس أمن يثرب وأهلها، وتمس نسيجهم الاجتماعي، بل إن تغيير اسم يثرب إلى المدينة بعد الهجرة لابد أن يستثير من لم يدرك المغزى من هذا التغيير.

إن هذه الأزمة النفسية أو رَدَّة الفعل السَّاخطة عند ابن سلول، لا يمكن أن يخف تأثيرها إلا بحل واحد، وهو: انشراح صدره للإسلام، وهذا ما لم يتحقق، ومن الطبيعي بعدها أن تُسيطر رَدَّة الفعل الناقمة والحاقدة والراغبة في الانتقام على ابن سلول، فيُنَاصب النبي ﷺ والمسلمين العداء بكل وسيلة ممكنة.

---

(٣٩) العواجي، محمد، مرويات الإمام الزهري، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ، ص٢٦٨، ورواه البخاري. انظر ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٢٣١؛ وقريبًا منها رواية ابن إسحاق. ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٢٢٠؛ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣٨.

عمل ابن سلول لتكوين كيان معادٍ للدعوة داخل مجتمع المدينة يأوي إليه كل رافض للدخُول فيً الإسلام من المنافقين واليهود، كما عمل لصدِّ مَن توقع منه الدُّخولَ في الإسلام، ومن هؤلاء أبو قيس صيفي بن الأسلت، إذ إنه لما أراد الإسلام عند قدوم النبي ﷺ لقيه ابن سلول، وكلَّمه بما أغْضبَه ونَفَّره من الإسلام..(٤٠)، وكان صيفيٌّ شاعرًا وقائدًا استطاع أن يحجز قومه من بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف، وهم أوس الله، عن الإسلام(٤١).

كان من أوائل المواقف المعادية المباشرة من ابن سلول تجاه النبي ﷺ، أن النبي ﷺ لما انتقل من قباء إلى المدينة عرَّج على ابن سلول ينتظر منه أن يدعوه للنزول عنده، فكان رد ابن سلول: "اذهب إلى الذين دعوك وانزل عليهم"(٤٢)، ولم تشر روايات أخرى -خاصة المتقدمة منها- إلى هذا الموقف، حيث أوردت مسيرة انتقال النبي ﷺ من قباء إلى المدينة بالتفصيل دون الإشارة إلى مروره على ابن سلول(٤٣)، ولكن إذا صحت الرواية، فمن الواضح أن ابن سلول أراد أن يوصل رسالة للنبي ﷺ بأن من دعوه لا يمثلون إلا أنفسهم، وأنه ومن بقي على الشرك واليهود غير راغبين في مقدم النبي ﷺ والمهاجرين.

---

(٤٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٥٦.

(٤١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٦.

(٤٢) البداية والنهاية، ج٣، ص١٩٩.

(٤٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١١٢.

ومن المواقف المبكرة لابن سلول المعادية للنبي ﷺ - قبل غزوة بدر - ما رواه البخاري أن النبي ﷺ ركب ليعود سعد بن عبادة، ومر بمجلس فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم ابن سلول، وعبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة خمَّر ابن سلول أنفه بردائه ثم قال: لا تغبِّروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ، ثم وقف ونزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن سلول: أيها المرء لا أحسن مما تقول؛ إن كان حقًا فلا تؤذنا به في مجالسنا، فمن جاءك منا فاقصص عليه، قال: عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله اغشنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا(٤٤).

واضح من موقف ابن سلول أنه أراد أن ينفر النبي ﷺ من مجالسه حتى لا يبلغ دعوته لمن حوله، كما أراد أن يؤكد مكانته القيادية بين أتباعه الذين شهدوا الموقف بتغليظه القول للنبي ﷺ، وهو فعلٌ لم يجرؤ عليه أحد من أهل المدينة.

ظهرت تبعات الهجرة مبكرةً عند ابن سلول، فقد كتب إليه كفار قريش، وإلى من كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج يقولون: إنكم آويتم صاحبنا وإنكم أكثر أهل المدينة عددًا، وإنا نقسم بالله لتقتلنه أو لتخرجنه أو لنستعين بالعرب

---

(٤٤) العواجي، مرويات الزهري، ص٢٦٦-٢٦٧؛ ابن هشام، السيرة، ج٢ ص٢٢٠؛ ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٢٣١.

عليكم، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك ابن سلول ومن معه من عبدة الأوثان تراسلوا، فاجتمعوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم في جماعة، فقال: ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش يريدون أن يلقوا بأسكم بينكم، فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا..(٤٥)، وكان هذا الموقف أشد المواقف عداء في المواجهة المباشرة بين ابن سلول والنبي ﷺ والمسلمين بعد الهجرة.

وبعد استقرار النبي ﷺ والمهاجرين في المدينة توالت متغيراتٌ مهمةٌ ومتلاحقة على مجتمع المدينة بدأت بسلسلة الغزوات والسرايا المتتابعة ضد قوافل قريش، التي اقتصرت المشاركة فيها على المهاجرين، ومن ثم لم تكن تعني ابن سلول... ولم يتخذ حيالها أي موقف يُذكر.

موقف ابن سلول بعد غزوة بدر:

إن المتغير الأكبر في تطور الأحداث، والمفاجئ لابن سلول هو الانتصار الكبير للمسلمين في غزوة بدر بعد تسعة عشر شهرًا من الهجرة، عن أثره يقول الواقدي: "فلما قدم بالأسرى- أسرى بدر - أذلَّ الله رقاب المشركين والمنافقين واليهود، ولم يبق بالمدينة يهوديٌّ ولا منافقٌ إلا خَضَع عنقه لوقعة بدر"(٤٦)، هذا الانتصار أجبر ابن سلول ومن بقي معه

---

(٤٥) العواجي، مرويات الزهري، ص٣١٣؛ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسن، دلائل النبوة، تح: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج٣، ص١٧٨.

(٤٦) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٢١. وخضد عنقه أي ثناه.

على الشرك على تغيير موقفهم، فقد أدرك حجم قوة المسلمين، وتمكنهم في مجتمع المدينة، وعبر عن ذلك ابن سلول صراحة - كما جاء في رواية البخاري- فقال بعدِ بدر: "هذا أمر قد توجه.. فبايَعوا رسول الله على الإسلام فأسْلَموا"(٤٧). يقول ابن القيم بعد بدر: " فأسلم بشرٌ كثيرٌ من أهل المدينة وحينئذ دخل ابن سلول المنافق وأصحابه الإسلام ظاهرًا"(٤٨).

لم يكن أمام ابن سلول خيار آخر، فهو لن يتمكن من مغادرة المدينة، ويفارق أهله وعشيرته ويخسر مكانته بينهم كما فعل أبو عامر الراهب(٤٩)، وفي الوقت ذاته لن يتمكن من البقاء على الشرك، إذ سيكون معرضًا للعقوبة، كما أن من أسلم من قومه ربما يتخذون موقفًا معاديًا منه، فيفقد مكانته عندهم، ولذا تحدثنا إحدى الروايات بأن ابن سلول قد ألحَّ عليه قومه - ربما لمكانته عندهم - ليعلن إسلامه، وأن يأتي النبيَّ ﷺ ليستغفر له، فاستجاب لمطلبهم مكرهًا، "فأظهر الإيمان وأعطى زكاة ماله"(٥٠).

لقد كان الخيار الوحيد أمام ابن سلول هو الدخول في الإسلام ظاهرًا، والبقاء على الشرك باطنًا، ويأتي موقفه هذا

---

(٤٧) ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٢٣١؛ العواجي، مرويات الزهري، ص٢٦٩.

(٤٨) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص١٦٩.

(٤٩) خرج أبو عامر في ٥٠ رجلاً من الأوس ولحق بالمشركين. الواقدي، المغازي، ج١، ص٢٤٤. واسمه عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان. انظر ابن هشام، السيرة، ج٣، ص١٢.

(٥٠) الطبري، التفسير، ج١٢، ص١٠٣.

ضمن إطار موقف المنافقين بشكل عام من الإسلام بعد ظهوره وتمكنه، وكما يقول ابن إسحاق: "فظهروا بالإسلام واتخذوه جُنة من القتل، ونافقوا في السر"(٥١)، وعند قتادة أنهم اتخذوا أيمانهم (جُنَّة) ليعصموا بها دماءهم(٥٢)، وأموالهم فأصبح ابن سلول بعدها "رأس المنافقين وإليه يرجعون"(٥٣).

إن إسلام ابنِ سلول بعد غزوة بدر يعد تسليمًا للواقع الجديد، ونقلةً مهمة، ومؤثرةً على مواقفه، فهو سيتصرف وفق ضوابط دخوله في الإسلام، وستجرى عليه أحكامه، كما يتطلب منه ممارسة مواقفه المعاديةً سرًا، أو بأسلوب يجنبه العقوبة، أو نفور من أسلم حقيقةً لا نفاقًا من قومه، ولمزيد من الاطمئنان سيتظاهر ابن سلول بحماسه للنبي ﷺ وأصحابه، وتُسعفنا المصادر بروايتين تبرزان هذا التوجه عند ابن سلول، ففي الأولى أن النبي ﷺ كان إذا جلس يوم الجمعة يخطب قام ابن سلول فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا وأطيعوا ثم يجلس(٥٤). وفي الثانية: أن ابن سلول خرج هو وأصحابه ذات يوم، فاستقبلهم نفر من الصحابة،

---

(٥١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ١٣٥.

(٥٢) الطبري، التفسير، ج١٢، ص١٠١، وهو ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

(٥٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١٤٨.

(٥٤) الواقدي، المغازي، ج١، ص٣١٨؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٥٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص٥١.

فقال ابن سلول: انظروا كيف أرُدُّ هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: مرحبًا بالصديق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله، ثم أخذ بيد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: مرحبًا بسيد بني عدي بن كعب، الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثم أخذ بيد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: مرحبًا بابن عم رسول الله وختنه، سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله، ثم افترقوا، فقال ابن سلول لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت(٥٥).

موقف ابن سلول من بني قينقاع:

بعد غزوة بدر حاصر النبي ﷺ بني قينقاع - حلفاء الخزرج - على رأس عشرين شهرًا من الهجرة، وكانوا يوصفون بأنهم أشجع يهود المدينة(٥٦)، وبعد حصارهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وهنا بادر ابن سلول في التدخل لإنقاذهم من القصاص، وقد وردت عدة روايات تتفق في أصل الموقف إلا أنها تختلف في التفصيلات، فيروي الواقدي أن ابن سلول مرَّ بيهود بني قينقاع بعد استسلامهم، ونزولهم على حكم رسول الله ﷺ، وكانوا مكتَّفين فطلب حلَّ وِثاقهم، ولم يُستجب له، فوثب إلى النبي ﷺ وأدخل يده في جنب درع النبي ﷺ من خلفه فقال: يا محمد، أحْسِن في موالي، فأَقبل

---

(٥٥) الواحدي، أسباب النزول، ص٢٥.

(٥٦) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٧٨؛ ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبدالله، زاد المعاد في هدي خير العباد، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ،ج٢، ص١١٥.

عليه النبي ﷺ غضبان متغير الوجه فقال: ويلك أرسلني فقال: لا أرسلك حتى تُحسِن في مواليَّ، أربعمئة دارع وثلاثمئة حاسر منعوني يوم الحدائق ويوم بُعَاث من الأحمر والأسود تريد أن تَحْصدهم في غَدَاة واحِدَة؟ يا محمد، إني امرؤٌ أخشى الدوائر، فتركهم رسول الله ﷺ له، ثم أمر أن يُجلوا عن المدينة، ووكَّل بإجلائهم عبادة بن الصامت، وأمْهَلهُم ثلاثة أيام، ولما انتهت المُهْلَة سألوا عُبادة أن يمهلهم أكثر فأبَى، وحاول ابن سلول أن يعاود الاستشفاع لهم، ولما وصل إلى مكان النبي ﷺ، وأراد الدخول عليه حجَبَه الصحابة، ومنعوه، فأراد أن يدخل عنوة فدفعه أحدهم دفعةً شديدةً، فاصطدم وجْهه بالحائط وشُجَّ، فانصرف(٥٧). وفي رواية أخرى أنهم لما نزلوا على حكم رسول الله ﷺ.... كلمه فيهم حليفهم ابن سلول وألح على النبي ﷺ قائلاً: "أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة إني امرؤ أخشى الدوائر فقال له النبي ﷺ: هم لك"(٥٨).

يستشف من الروايات السابقة أن تدخل ابن سلول في أمر بني قينقاع تدخل غير مسوَّغ، وينم عن التواطؤ والمداهنة وموالاة اليهود... ولكن ثمة روايات تفيد بأن النبي ﷺ هو الذي أتاح الفرصة لابن سلول للتدخل في أمر بني قينقاع، فقد ورد أن النبي ﷺ - بعد استسلام بني قينقاع - أرسل

---

(٥٧) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٧٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٢٩.

(٥٨) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٢٩.

إلى حلفائهم من الخزرج، فحضر اثنان من رؤسائهم وهما: عبادة بن الصامت، وابن سلول، وكان لعبادة بن الصامت من حلفهم مثل الذي لهم من ابن سلول، فأما عبادة فخلعهم وتبرَّأ إلى الله ورسوله من حلفهم.... وأما ابن سلول فتشبث بحِلفه مع اليهود، وقال: "لكني لا أبرأ من ولاء يهود إني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ من ولاية موالي"، فكان ينظر بعين الوفاء لأحلافه، لذا وجه عتابِه لعبادة بن الصامت حليفهم الثاني بقوله: "تبرأت من حلِف مواليك؟ ما هذه بيدك عندهم"، ثم ذكَّره مواطن قد أبلوا فيها(٥٩)، ولما رأى النبي ﷺ إصرار ابن سلول على موالاة بني قينقاع وموقف عبادة منهم قال له :"يا أبا الحباب أرأيت الذي نُفسْت به من ولاء يهود على عبادة فهم إليك دونه قال: إذن أفعل(٦٠).. وهذه الرواية الأخيرة أقرب للواقع لقوة الحِلف بين يهود بني قينقاع والخزرج، وتكشف بجلاء إدراك النبي ﷺ لهذا الواقع وتصرفه بحكمة فيه، ولهذا تكرر المشهد فيما بعد حين وافق النبي ﷺ على أن ينزل يهود بني قريظة - على الرغم من شناعة جرمهم واستحقاقهم لأقصى عقوبة - على حكم سعد بن معاذ للحلف السابق بينهم، وظهر تعاطف قوم سعد معهم(٦١)، ومن الطبيعي إذا أتيحت الفرصة لابن سلول لإبداء رأيه في مصير حلفائه يهود بني قينقاع أن ينحاز إليهم،

---

(٥٩) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٧٩.

(٦٠) الطبري، التفسير، ج٤، ص٦١٦. انظر تفسير الآية ٥١ من سورة المائدة .

(٦١) العواجي، مرويات الزهري، ص٢٤٨.

ولا شك أن إجلاءهم خير عنده من قتلهم. ومهما يكن فإنه يُلحظ من الروايات السابقة قوة ابن سلول في الطلب وإحجام الصحابة عن اعتراضه... وتوقيت الحدث يدل على قوة موقفه في تلك المرحلة المبكرة.

إن هذا الفعل من ابن سلول أَمْر مُتوقَّعٌ، ومسوّغ إذا نظرنا إليه من زاوية أن ابن سلول أسلم مكرهًا، ولا يعد من الفئة المؤمنة الموالية لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن ثم فإنه انطلق في موقفه من باب الوفاء لبني قينقاع على مواقفهم السابقة معه، ولم يخذل حلفاءه على الرغم من قوة المسلمين آنذاك وظهورهم، ولم يكن متفاعلاً مع رد عبادة بن الصامت في تعليل براءته من بني قينقاع حين قال: "تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود"(٦٢)، ومن جانب آخر لم يكن ابن سلول يأمنُ جانب المسلمين؛ لهذا كان من مسوّغاته لموقفه أنه امرؤ يخشى الدوائر.

موقف ابن سلول في غزوة أحد:

وبعد غزوة بدر أخذ أثر ابن سلول يتنامى في الأحداث، وبأشكال ومواقف متعددة، والانطباع العام عن هذه المواقف أنها سلبية، إلا أن الملحوظ باستقراء هذه الأحداث بتجرد أنه كان لابن سلول آثار إيجابية فيها مستندًا إلى مكانته وتأثيره وخبرته في مجتمع المدينة، وأفاد منها المسلمون، وهو ما يمكن أن يفسر لنا سر مكانته عند النبي ﷺ الذي أفاد منه موكلاً أمر نفاقه إلى الله، وهنا تجب الإشارة إلى أن النبي ﷺ أتاح

---

(٦٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٧٩.

الفرصة للمنافقين دون المشركين واليهود للمشاركة في حروبه ضد خصومه طالما أن ظاهرهم الإسلام.

من مواقف ابن سلول البارزة موقفه في غزوة أحد، فالروايات تجمع على أن ابن سلول كان من الذين أشاروا على النبي ﷺ ألا يخرج من المدينة لمواجهة قريش، ووافقه على رأيه أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار(٦٣)، وفي رواية أنه قال: "يا رسول الله كنا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذراري في هذه الصَّياصِي، ونجعل معهم الحجارة، ونُشَبِّك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصَّياصِي والآطام نقاتل بأسيافنا في السكك.. إن مدينتنا عذراء ما فُضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه.. يا رسول الله أطعني في هذا الأمر.! وأعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة(٦٤).

وهذا الموقف لابن سلول موقف إيجابي، وإن كان الدافع إليه هو حميته وانتصاره لبلده وقومه، فمحاولاتُه الجادة لإقناع النبي ﷺ بعدم الخروج لملاقاة قريش من خلال تفصيل الحجج التي ساقها يؤكد ذلك، وكان بإمكانه أن يشير على النبي ﷺ بالخروج لاحتمال هزيمة المسلمين بسبب تفوق

---

(٦٣) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣٨.

(٦٤) الواقدي، المغازي، ج١، ص٢١٠؛ وقريب منه رواية ابن إسحاق، انظر ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٧.

جيش قريش، واحتمال نقض يهود المدينة العهد، ودخولهم الحرب إلى جانب قريش، وهي أمنية ابن سلول.

وعلى أية حال لابد أن نستوعب ردة الفعل الغاضبة من شخص مجَرِّب واثق من رأيه، يرى أن له مكانته بين قومه تجاه عدم استجابة النبي ﷺ لرأيه الذي وافقه عليه ﷺ. وأيده أكثر أهل المدينة.

أوردت المصادر موقف ابن سلول في هذه الغزوة بعد اتخاذ قرار المواجهة خارج المدينة، وجاءت الروايات مضطربة على الرغم من اتفاقها على أساس الموقف، ففي رواية ابن إسحاق أنه لما انطلق جيش المسلمين إلى أحد، وفي الطريق بين المدينة وأحد انسحب ابن سلول بثلث الناس ممن اتبعه من قومه من "أهل النفاق والريب"، وتعلل بأن النبي ﷺ خالف رأيه ورأي الأكابر، وأخذ رأي الصغار وقال: "أطاعهم وعصاني"(٦٥)، وفي رواية أخرى أنه لما وصل النبي ﷺ والمسلمون إلى أحد وهو يرى المشركين انْخَزل ابن أُبيّ من ذلك المكان في كتيبة كأنه هيقٌ يقدمهم، وهو يقول: عصاني وأطاع الولدان ومن لاً رأي له، وانخَزَل ومعه ثلاثمئة، فبقي رسول الله ﷺ في سبعمئة(٦٦)، وفي رواية للزهري أن ابن سلول انْخَزَل بقريب من ثلث الجيش، ومضى النبي ﷺ وأصحابه في سبعمئة(٦٧)، ولكن ترد في المصادر روايات

---

(٦٥) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٨.

(٦٦) الواقدي، المغازي، ج١، ص٢١٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٣٩. والهَيْق ذَكَرُ النعام.

(٦٧) العواجي، مرويات الزهري، ص٣٣٢.

أخرى لها دلالات مختلفة، فقد ذكر أن النبي ﷺ لما خرج من المدينة ووصل إلى الشَّيخيْن - أطَمان بالمدينة- التفت فنظر إلى كتيبةٍ خَشْناء لها زَجَل، فقال: ما هذه..؟ قالوا: حلفاء ابن أبي من يهود، فقال ﷺ: لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك(٦٨)، وفي رواية ثالثة أن النبي ﷺ خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع إذا هو بكتيبةٍ خَشْناء، فقال: من هؤلاء..؟ قالوا هذا عبدالله بن أبي بن سلول في ستمئة من مواليه من اليهود من أهل قينقاع، وهم رهط عبدالله بن سلام. قال: وقد أسلموا ؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: قولوا لهم فليرجعوا، إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين(٦٩)، وفي رواية أن النبي ﷺ خرج إلى أحد، فلما خلَّف ثنيَّة الوداع نظر خلفه، فإذا كتيبة خَشْناء، فقال: من هؤلاء ؟ قالوا: عبدالله بن أبي ابن سلول ومواليه من اليهود، قال: أقد أسلموا..؟ قالوا: لا، بل على دينهم قال: مروهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين(٧٠)، ولعل الرواية الأخيرة أثبتُ من سابقتها لأن يهود بني قينقاع كان قد أجلوا من المدينة بعد غزوة بدر كما تقدم. وهنا لابد من لحظ الفرق بين الموقفين، فالأول اتهام صريح لابن سلول بالخذلان

---

(٦٨) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٣٩.

(٦٩) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٤٨. ويستبعد مشاركة بني قينقاع لأنهم أجلوا عن المدينة ولحقوا بأذرعات ببلاد الشام. انظر الواقدي، المغازي، ج١، ص١٨٠.

(٧٠) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله، كتاب المغازي، تح: عبدالعزيز العمري، دار إشبيليا، ١٤١٩هـ، ص٢٣٠؛ وقريب منه رواية الواقدي، المغازي، ج١، ص٢١٥.

للمسلمين، والثانية مسوَّغة بأن من كان مع ابن سلول هم من اليهود، والرد كان من النبي ﷺ، وإن كان المرجح عند الباحث أن جيش ابن سلول كان خليطا من المنافقين واليهود، وبهذا يمكن أن يجمع بين الروايات السابقة، ويتوافق هو مع وصفهم بأنهم ثلث الجيش، ومهما يكن فقد كان بإمكان ابن سلول أن يرد اليهود ويمضي بمن معه أمام النبي ﷺ؛ لكنه لم يفعل، وتراجع إلى المدينة بمبررات أخرى.

لاشك بأن موقف ابن سلول في أحد كان موقفًا سيئًا، وينم عن الغدر والخذلان، لكن يجب ألا ننظر للموقف، وكأنه صادرٌ عن شخص مؤمن مذعن لأمر رسول الله ﷺ، وإنما ننظر إليه على أنهً صادرٌ عن شَخص منافق يسير وفق معتقده ونفسيته ووضعه في مجتمع المدينةً، فابن سلول صاحب تجربة وخبرة ورأي، وحاول إقناع النبي ﷺ بعدم الخروج، وأيد النبي ﷺ رأيه، وكذلك كبار الصحابة، وكره الخروج بشرٌ كثيرٌ من الصحابة(٧١)، بل إن بعض من شارك بأحد من المؤمنين همَّ بالرجوع إلى المدينة(٧٢). ثم في النهاية يقرر النبي ﷺ الخروج، هنا لابد أن نتصور ردة الفعل المتوقعة عند ابن سلول ومن معه وهم يرون خطأ هذا القرار، فكان تراجعه الطريقة الوحيدة للتعبير عن عدم رضاه، ودعم موقفه فيما بعد نتائج غزوة أحد، فبعد المعركة جاءه حلفاؤه ومن معه من المنافقين مؤيدين موقفه ورأيه السابق للنبي ﷺ

---

(٧١) الواقدي، المغازي، ج١، ص٢١٣.

(٧٢) وقد ذكر الله جل وعلا ذلك في سورة آل عمران، الآية ١٢٢؛ ابن هشام، السيرة ، ج٣، ص٥٨؛ الطبري، التفسير، ج٣، ص٤١٨.

بعدم الخروج وعدم استجابة النبي ﷺ لرأيه ونزوله عند رأي الغلمان(٧٣)..!

وبعد غزوة أحد أمر النبي ﷺ من حضر الغزوة أن يسيروا لمطاردة أبي سفيان وجيشه، فطلب ابن سلول أن يركب مع النبي ﷺ، فرفض، وخرج المسلمون مع جراحاتهم(٧٤)، ولعل ابن سلول أراد بطلبه المشاركة أن يخفف من سلبيات موقفه في غزوة أحد.

كانت نتيجة غزوة أحد مؤثرة في موقف ابن سلول سلبًا وإيجابًا، فهذه الهزيمة قوَّت موقفه المعادي، وأسهمت في احتفاظه بمكانته، ولذا أخذ يردد مذكرًا برأيه الرافض للخروج: "لو أطاعونا ما قتلوا"(٧٥)، كما استغلها في بث الدعاية المعادية للنبي ﷺ والمسلمين، فجعل والمنافقون معه "يشمتون ويُسرون بما أصابهم ويظهرون أقبح القول...، كما أخذوا يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابه، ويأمرونهم بالتفرق عنه"(٧٦)، هذا من جانب ومن جانب آخر أحدثت نتيجة غزوة أحد تخوفًا عند فئات من الناس أن "يُدال عليهم الكفار"(٧٧). ولكن في الوقت نفسه أثر موقف ابن سلول المنهزم من المعركة في نظرة قومه إليه(٧٨).

---

(٧٣) الواقدي، المغازي، ج١، ص٢١٦.

(٧٤) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٢١٦.

(٧٥) الطبري، التفسير، ج٢، ص٥١٢؛ وذكر الله عز وجل ذلك في سورة آل عمران، الآية ١٦٨.

(٧٦) الواقدي، المغازي، ج١، ص٣١٧.

(٧٧) الطبري، التفسير، ج٤، ص٦١٦.

(٧٨) الواقدي، المغازي، ج١، ص٣١٨؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٥٧.

ظل ابن سلول ممثلاً لأعداء المسلمين بالمدينة، فيروى أن ثلاثة من قريش وهم أبو سفيان وعكرمة ابن أبي جهل وأبو الأعور السلمي قَدِموا المدينة بعد قتال أحد، فنزلوا على ابن سلول، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يُكَلِّموه، ثم أمر بإخراجهم من المدينة(٧٩).

موقف ابن سلول من غزوة بني النضير:

بعد نقض بني النضير العهد مع رسول الله ﷺ وتآمرهم على قتله، قرر النبي ﷺ قتالهم، عندها بادر رهط من بني عوف بن الخزرج منهم ابن سلول، وبعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا فوالله لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا، وإن قوتلتم لننصرنكم(٨٠)، وفي رواية أخرى أن ابن سلول قال لهم: لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي من العرب يدخلون معكم حصونكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، وحين حوصر بنو النضيرِ تخلى ابن سلول عن وعده(٨١)، وموقف ابن سلول حقيقةٌ حكاها القرآن الكريم(٨٢)، ولكن السؤال هنا كيف: يوالي ابن سلول بني النضير، وهم حلفاء خصومه الأوس؟. والجواب المُحْتَمل أن ابن سلول أراد الإيقاع ببني النضير بوعده بنصرهم ليُصِرُّوا على موقفهم المعادي للنبي ﷺ، ومن ثم يواجهون مصير حلفائه بني قينقاع.

---

(٧٩) الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص٣٦٤.

(٨٠) الواقدي، المغازي، ج١، ص٣٦٨؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٢٩، ١٤٩.

(٨١) ابن حبان، السيرة، ص٢٣٥.

(٨٢) سورة الحشر، الآية ١١؛ انظر الطبري، التفسير، ج١٢، ص٤٤.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٢هـ السنة السابعة والثلاثون
الدارة

واجه المسلمون بعد غزوة أحد حدثًا يعد الأخطرَ على المسلمين بالمدينة، وهو تكالبُ الأحزاب (قريش والقبائل) على حصار المدينة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، ومما يلفت نظر الباحث الغيابُ الكامل لدور ابن سلول عن هذه الغزوة، مع أنها كانت فرصةً كبيرةً له للإيقاع بالمسلمين حيث حاصر المدينة عشرة آلاف رجل، وزاد الموقف سوءًا غدرُ بني قريظة ونِقْضهم العهد مع رسول الله ﷺ وتواطؤهم مع قريش والقبائل.

لقد شارك المنافقون في حفر الخندق مشاركةً كسيحةً، وكان لهم أثر مثبطٍ ومرجفٍ بالمسلمين في تلك الأحوال الصعبة(٨٣)، ولم يظهر اسم ابن سلول مع أهمية الحدث وخطورته. مع أنه كان من المتوقع أن يكون له أثر واضحٌ في الأحداث، ولعل السبب في تواري أثره هو موقفه المتخاذل في غزوة أحد، فلم يعد يُسْتَمع إليه، ولن يكون له أثر ظاهر، والجميع منه على حذر.

موقف ابن سلول في غزوة بني المصطلق:

في شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ والمسلمون لمواجهة بني المصطلق من خزاعة، حين علم بتواطؤهم هم وعدد من القبائل على محاربة رسول الله ﷺ ، وشارك مع النبي ﷺ والمسلمين في هذه الغزوة " بشر كثير من المنافقين"، ومن ضمنهم ابن سلول(٨٤).

---

(٨٣) نلمس تصوير ذلك ببلاغة في سورة الأحزاب في الآيتين: ١٠-١١.

(٨٤) الواقدي، المغازي، ج١، ص٤٠٥. علَّق الواقدي على الرواية بأن هدف المنافقين من الخروج ليس الرغبة في الجهاد، ولكن الطمع في الغنائم مع قرب المسافة.

لم تنقل الروايات أي أثر سيء لابن سلول في أحداث الغزوة نفسها، وإنما ظهر الأثر في حادثةٍ وقعت في أثناء عودة الجيش منتصرًا إلى المدينة، حيث وقع خلاف بين غلمان من المهاجرين والأنصار، وصاح كل منهم بقومه، وبلغ ذلك ابن سلول، فقال قولته المشهورة: "أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل"، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأمرهم بالرحيل كأنه يشغلهم، فأدرك ركبًا من بني عبدالأشهل في المسير، فقال لهم: ألم تعلموا ما قال المنافقُ عبدالله بن أبي؟ قالوا: وماذا قال يا رسول الله ؟ قال: أما والله لو لم تنفقوا عليهم لانفضوا من حوله، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قالوا: صدق يا رسول الله، فأنت والله العزيز، وهو الذليل(٨٥)، وفي رواية أخرى من حديث جابر قال: كنا في غزاة، فكَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري يالَلأنصار, وقال: المهاجري يالَلمهاجرين، فقال النبي ﷺ: "دعوها فإنها منتنةٌ" قال جابر: وكانت الأنصار حين قدِم النبيُّ ﷺ أكثر، ثم كَثُر المهاجرون بعد، فقال ابن سلول: أوَ قد فعلوا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. قال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه(٨٦). وقال ابن سلول أيضًا: "والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبك يأكلك"(٨٧).

---

(٨٥) ابن شبة، المغازي، ص٢٦٩.

(٨٦) ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٦٥٢.

(٨٧) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٣٣٤.

يقول زيد بن أرقم: كنت في غزاة - بني المصطلق - فسمعت عبدالله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفَضُّوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَل، فذكرت ذلك لعمي - أو لعمر - فذكرهِ للنبي ﷺ، فدعاني فحدثته فأرسل رسول الله ﷺ إلى ابن سلول وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، قال زيد، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فقال لي عمي: ما أردت حين كذَّبَك رسول الله ﷺ ومقَتك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ**﴾(٨٨)، الآيات؛ فبعث إليه رسول الله ﷺ فقرأها عليه، فقال: إن الله قد صدقك يا زيد(٨٩).

وثمة رواية أخرى تحكي الحدث حكايةً مختلفة، فيروي الواحدي عن زيد بن أرقم أنهم غزوا مع النبي ﷺ ومعهم ناس من الأعراب، ثم ذكر خلاف الأعرابي ورجل من الأنصار على حوض ماء، فشج الأعرابيُّ رأسَ الأنصاري، فأتى الأنصاريُّ ابن سلول فأخبره، فقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله - يعني الأعراب - ثم قال لأصحابه: إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل(٩٠).

وفي رواية أخرى ذكر الحادثة بصورة أخرى، فذكر أن جهجاهًا، وهو رجل من غفار أجير لعمر بن الخطاب ازدحم

---

(٨٨) سورة المنافقون، الآية ١ وما بعدها.

(٨٩) البخاري، الصحيح، ج٦، ص٦٣.

(٩٠) الواحدي، أسباب النزول، ص٤٥١.

على ماء هو وسنان الجهني حليف بني عمرو بن عوف من الخزرج فاقتتلا، فصرخ سنان بالأنصار وجهجاه بالمهاجرين، فأعان جهجاهًا رجلٌ من المهاجرين يقال له جُعال، وكان فقيرًا، فقال ابن سلول : وإنك لهَنَاكَ، فقال ومن يمنعني أن أفعل ذلك؟ واشْتَدَّ لسان جعال على ابن سلول، فقال ابن سلول: والذي يُحلف به لأَذرنَّك ويهمُّك غير هذا، وغضب ابن سلول وقال: والله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك، إنا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم دياركم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عن جُعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد...^(٩١). لكن رواية الواقدي تعطي معلومات أدق تفصيلاً، فيذكر أنه بعد الخلاف بين سنان وجهجاه، وضرب الأخير للأول حتى سال دمه، واستثارة كل منهما لقومه؛ غضب ابن سلول غضبًا شديدًا ومما قال: "والله ما رأيت كاليوم مذلةً، والله إني كنت لكارهًا لوجهي هذا، ولكن قومي غلبوني، قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلدنا وأنكروا منَّتَنا، والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: "سمن كلبك يأكلك"، والله لقد ظننت أني سأموت قبل أن أسمع هاتفًا يهتف بما يهتف به جهجاه، وأنا حاضر لا يكون لذلك مني غِيَرٌ. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٣٢هـ السنة السابعة والثلاثون
الدارة

---

(٩١) الواحدي، أسباب النزول، ص٤٥١.

الأعز منها الأذل، ثم أقبل على قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم فنزلوا منازلكم، آسَيْتُموهم في أموالكم حتى استغنوا، أما والله لو أمسكتم بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم، ثم لم يرضوا بِما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا فقتلتم دونه فأَيْتَمْتُمْ أولادكم وقَلَلْتُم وكَثُروا(٩٢).

على الرغم من شناعة فعل ابن سلول إلا أنّ ردَّة فعله متوقعة وليست بمستغربة إذا ما عرفنا أنها تصدر من شخص يرى نفسه زعيمًا منافسًا، ويرى أنه وقومَه أصْحَابُ الأرض وأصحاب الفضل في استقبالهم المهاجرين، كما أنه لا يَرى فِي تضحياتِ قومِه أنها طاعةٌ لله ورسوله ﷺ، فهو متجردٌ من هذا الشعور، وموقف انتصار كل طرف بقومه موقف مستفز له، أخرج مكنون نفسه، ولقد أراد ابن سلول استثمار الحدث باستثارة النعرة القبلية لدى الأنصار، ليُخَفِّف من تأثير الأخوة الإيمانية المتحققة بين المهاجرين والأنصار.

ابن سلول وحادثة الإفك:

كان من أشَدِّ مواقف ابن سلول شناعةً في حق النبي ﷺ موقفه في حادثة الإفك واتهامه عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين وزوجة النبي ﷺ في عرضها، وذلك في أعقاب غزوة بني المصطلق(٩٣)، تقول عنه عائشة (رضي الله عنها): " وكان

---

(٩٢) الواقدي، المغازي، ج١، ص٤١٦.

(٩٣) وردت أحداث هذه القصة مفصلة في مصادر السيرة والحديث والتفسير. انظر رواية البخاري عند ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٤٣٣.

الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبي ابن سلول.. قال عروة: أُخْبِرْت أنه كان يُشاع ويُتَحدَّث به عنده، فَيُقِرُّه ويستَمِعُه ويستَوشِيه(٩٤).

ويقول ابن القيم في دوافع ابن سلول في اتهامه لعائشة (رضي الله عنها): "ووجد الخبيث عدو الله ابن سلول متنفسًا فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه"(٩٥)، وتعليل ابن القيم منطقي ومبني على إدراك الوضع النفسي المتأزم عند ابن سلول، وهو يرى ضمور مكانته بين قومه، ونجاحات النبي ﷺ المتتالية في قيادة المجتمع المدني، إن هدف ابن سلول من مقولته الإساءة إلى النبي ﷺ والانتقام منه بتشويه سمعة بيته بين المسلمين في أعز ما يمكن أن يقدح فيه عند العرب. وبلغ من حجم دعاية ابن سلول أن من الصحابة من شاركه مقولته وسعى بها وهم - كما جاء في رواية البخاري -: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش(٩٦).

ومن مواقف ابن سلول أيضًا موقفه من غزوة تبوك، فيروى أن ابن سلول عسكر على ثنية الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال ليس عسكره بأقل من العسكرين... فلما سار النبي ﷺ بالجيش تخَلَّف ابن سلول ومن كان معه

---

(٩٤) انظر ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٤٣٣.

(٩٥) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٢٣٣.

(٩٦) ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٤٣٢.

قائلاً: "يغزو محمد بني الأصفر، مع جَهْدِ الحال والحر والبلد البعيد؟ أيحسب محمد أن قتل بني الأصفر اللعب؟.."(٩٧). ووصف معسكر ابن سلول في هذه الرواية مبالغ فيه، وقد رده ابن حزم بقوله: "وهذا باطل لأنه لم يتخلف معه إلا ما بين السبعين إلى الثمانين فقط"(٩٨).

وعند الطبري: فلما سار النبي ﷺ نحو تبوك تخلف ابن أُبيّ راجعًا إلى المدينة فيمن تخلف من المنافقين، حتى قال: "يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال، والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال"(٩٩).

وفي رواية أن النبي ﷺ لما خرج إلى تبوك عسكر بثنية الوداع، وضرب عبدالله ابن سلول عسكره على ذي جُدَة أسْفَل من ثنية الوداع، ولم يكن بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه ابن سلول فيمن تخلف من المنافقين(١٠٠)، وذهب بعضهم إلى أن ابن سلول لم يشهد هذه الغزوة أصلاً(١٠١)،

---

(٩٧) الواقدي، المغازي، ج٣، ص٩٩٥؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص١٦٦.

(٩٨) ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم، جوامع السيرة، تحقيق: إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر، (د. ت)، ص٢٥١.

(٩٩) الطبري، التاريخ، ج٣، ص١٠٨.

(١٠٠) ابن حبان، السيرة، ص٣٦٧؛ الواحدي، أسباب النزول، ص٢٥٢. ونزل فيه قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

(١٠١) ابن كثير، التفسير، ج٤، ص٤٧٣؛ ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٦٤٤- ٦٥٠؛ العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ، ج٢، ص٤٠٩

وهذا مستبعدٌ، فمعظم المصادر أشارت إلى ذلك كما تقدم، ولعل الجمع بين القولين: أن ابن سلول لم يشهد الغزوة لأنه تراجع من بداءتها.

موقف النبي ﷺ من ابن سلول:

أوردت المصادر ردود فعل مختلفةً للنبي ﷺ تجاه مواقف ابن سلول، وكان الأغلب فيها الصبرُ، والعفو، واستثناؤه من العقاب المستحق شرعًا، بل وأبعد من ذلك حين أظهر النبيُّ ﷺ تقربه منه، وأبرزُ شاهدٍ على ذلك أن النبي ﷺ صلَّى عليه، واستغفر له بعد موته وشَهِد دفنه..؟! وهنا مثار السؤال عن سبب هذا الموقف من النبيَّ ﷺ تجاهه، على الرغم من شناعة أفعاله..؟

هناك مسوغات عامة وردت في المصادر عن موقف النبي ﷺ من ابن سلول، ويأتي بعض هذه المسوغات ضمن الإطار العام لموقفه ﷺ من المنافقين، فمن هذه المسوغات أن النبيَّ ﷺ كان يعامل المنافقين على الظاهر، فهم يُظهرونَ الإسلام ويؤدون الشعائر التعبدية، فاكتَسبوا بذلكَ حصانةً من العقاب، لأنهم اتخذوا أيمانهم جنةً ووقايةً ليعصموا بها دماءَهم وأموالَهم(١٠٢)، ويلخص ابن القيم سيرة النبي ﷺ في معاملتهم من خلال استقراء الآيات القرآنية الموجهة للنبي ﷺ في معاملة المنافقين فيقول:" وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكلُ سرائرهم إلى الله،

---

(١٠٢) الطبري، التفسير، ج١٢، ص١٠١؛ انظر تفسير الآية ٢ سورة المنافقين.

وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يُعْرض عنهم ويُغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم"(١٠٣).

ومن المواقف العملية الدالة على ذلك، ما روي أنه أُكثر على رجل من المنافقين عند النبي ﷺ فقال: هل يصلي؟ فقال: نعم، ولا خير في صلاته، فقال: "نُهيت عن المصلين.. نُهيت عن المصلين"(١٠٤)، ولهذا السبب كان المنافقون يُنْكِرون ما يُنْسَب إليهم من أفعال تستحق المَقْت أو العقوبة، ويَحلِفون على ذلك، فلا تثبت عليهم التهمة وينجون من العقاب.

ولابن تيمية رأي في معاملة النبي ﷺ مع المنافقين - ومنهم ابن سلول بطبيعة الحال - فيذكر أنَّ النبي ﷺ كان يخافُ أن يتولَّد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم، وقد بيَّن ذلك حين قال: لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.. فإنَّه لو قتلهم بما يعلمُه من كُفرهم لأوشك أن يظن الظان أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد، وإنَما قصده الاستعانة بهم على الملك، كما قال: أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، وأن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يُقتل مع إظهاره الإسلام كما قُتل غيره، وقد كان يغضب لقتل بعضهم قبيلته وأناس آخرون، فيكون سببًا للفتنة، واعتبر ذلك بما جرى في قصة عبدالله

---

(١٠٣) من هؤلاء الجلاس بن سويد الأنصاري. ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١٤١؛ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد عوض، مكتبة الباز، مكة المكرمة، ١٤١٥هـ، ج١، ص٣٣٠.

(١٠٤) الطبري، التفسير،ج١٢، ص١٠٧.

بن أبي، لما عرض سعد بن معاذ قتله خاصم له أناس صالحون وأخذتهم الحمية حتى سكتهم رسول الله ﷺ(١٠٥)، ويضيف ابن القيم على كلام شيخه:" أن نفاق ابن سلول وأقواله في النفاق كانت كثيرة جدًا كالمتواترة عند النبي ﷺ وأصحابه... فكان في ترك قتلهم.. مصلحة تأليف القلوب على رسول الله ﷺ، وجمع كلمة الناس عليه، وكان في قتلهم تنفير والإسلام بعدُ في غربة ورسول الله ﷺ أَحْرَص شيء على تأليف الناس وأَتْرَك شيءٍ لما ينفرهم عن الدخول في طاعته(١٠٦)، ومن الشواهد على ما تقدم عن صفح النبي ﷺ عن المنافقين أن مجموعة منهم تآمروا على قتله بعد عودته من تبوك، فلم يقتلهم وقال: "أكْره أن يتحدَّث الناس ويقولوا: إن محمدًا قد وضع يده في أصحابه"(١٠٧).

وعن سبب امتناع النبي ﷺ عن قتل من استوجب القتل ممن تنقصوه ﷺ -ومنهم ابن سلول- قال ابن القيم مفسرًا ذلك: "الحق كان له، فله أن يستوفيه، وله أن يسقطه"(١٠٨).

لا شك أن الآراء السابقة معتدٌّ بها ومنطقيةٌ، وهي مبنيةٌ على شواهد قرآنية، ومقولات صرَّح بها النبي ﷺ في عدة مواقف، ولكن الحديث عن رد فعل النبي ﷺ تجاه ابن سلول

---

(١٠٥) ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص٣٥٧-٣٥٨.

(١٠٦) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٤٩٧.

(١٠٧) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٤٧٨.

(١٠٨) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٣٨٧.

خاصة والمنافقين عامة لا يمكن إدراكه إلا من خلال تتبع سياق تطور الأحداث بعد هجرة النبي ﷺ واستقراره بالمدينة.

إن المتتبع لسياسة النبي ﷺ تجاه ابن سلول يجدها متدرجةً حسب تطور الأحداث، وقد كان النبي ﷺ يدرك مكانة ابن سلول وتأثيره في مجتمع المدينة، بل واستمرار هذه المكانة بعد الهجرة، والدلائل على ذلك كثيرةٌ، ومنها: أن الأنصار كثيرًا ما يعتذرون لأفعال ابن سلول عند النبي ﷺ، ويذكرونه بمكانته في الجاهلية، ويعتذرون له بأنَّه كان مرشحًا للزعامة، وأنها سلبت منه بهجرة النبي ﷺ(١٠٩)، أو ينتصرون له عصبيةً كما حدث معه في قصة الإفك(١١٠)، ومنها: أنه لما نقل زيد بن أرقم مقولة ابن سلول في غزوة بني المصطلق، وأنكرها ابن سلول جعل رهط من الأنصار يؤَنِّبُون زيدًا، ويقولون: عمدت إلى سيِّد قومك تقول عنه ما لم يقلْ(١١١).

ولهذا نجد النبي ﷺ يترفق بابن سلول ويأخذ في الحسبان مكانته، وحفلت السيرة بشواهد على ذلك، فيروى أن النبي ﷺ خرج لعيادة سعد بن عبادة فمر بابن سلول، قال ابن إسحاق: " فلما رآه رسول الله ﷺ تذَمَّم - أي كَره - من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل ثم سلم وجلس قليلاً..(١١٢).

---

(١٠٩) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٢٢٠؛ ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٣٨؛ ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٢٣١.

(١١٠) الواقدي، المغازي، ج١، ص٤٣١.

(١١١) الواقدي، المغازي، ج١، ص٤١٧.

(١١٢) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٢١٨.

لقد كانت الحاجة في بدء الهجرة إلى عدم إثارة أهلها فهم - كما يصفهم الزهري - "أخلاط: منهم المسلمون ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم وموادَعتهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشركًا، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشركًا، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم الرسول ﷺ يؤذونه أشد الأذى، فأمر الله عز وجل نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنه"(١١٣).

لم يكن قدوم النبي ﷺ والمهاجرين إلى المدينة محل ترحيب فئتين من أهلها، وهم المشركون واليهود، فقد كانوا "يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمرالله عز وجل نبيه بالصبر عليهم"(١١٤)، كما لم يشعر المسلمون بالأمان في بدء الأمر، وكانوا - كما يقول أبوالعالية -: "يصبحون في السلاح ويمسون في السلاح"(١١٥)، وكانت سلطة النبي ﷺ في بدء تكوينها، ولذا حرص النبي ﷺ على انتهاج سياسة متوازنة تجاه جميع القوى بالمدينة، ومن محاور سياسته استمالة ابن سلول بوصفة زعيمًا مؤثرًا في قومه.

أمر آخر لابد من أخذه بعين الحسبان، وهو أن انتشار الإسلام بين الأوس والخزرج، وما عُرف من قوة إيمانهم

---

(١١٣) العواجي، مرويات الزهري، ص٣٩٨؛ الواقدي، المغازي، ج١، ص١٨٤. وفيهم نزلت الآية رقم ١٠٩ من سورة البقرة.

(١١٤) الواحدي، أسباب النزول، ص٣٨. والآية ١٠٩ في سورة البقرة.

(١١٥) الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص٣٣٨.

وفضلهم، وتضحياتهم التي قدموها للإسلام والمهاجرين، كل هذا لا يعني أن هذين الحيين كانا قد تجَرَّدا تمامًا من مؤثرات العصبية الجاهلية المتجذرة في نفوسهم أيام الجاهلية، حين كان العداءُ بينهما كبيرًا، فقد استمرت مؤثرات هذه العصبية بعد الإسلام والهجرة، والدلائل على ذلك كثيرة، فمنها أنه في بيعة النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى كَره الأوس والخزرج أن يؤُمَّ بعضهم بعضًا فطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم من يؤُمُّهم، فأرسل مصعب بن عمير(١١٦)، وتكررت في المصادر أحداثُ نزاع بين الأوس والخزرج كادت تصل إلى القتال(١١٧)، بل وفي حضرة النبي ﷺ(١١٨).

من جانب آخر فعلى الرغم من تأثير الإسلام في المهاجرين والأنصار، ودعم روابط الأخوة الإيمانية بينهم إلا أنَّ هذا التأثير لم يجرد فئات من الأنصار من نظرتهم للمهاجرين أنهم وافدون عليهم، وشعورهم بالتضحيات التي قدموها من أجلهم، وتَأثُّر اقتصادهم بذلك، وهو ما يفهم من قول الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه لما أعز الله تعالى دينه، وكثر ناصريه قال بعضهم لبعض سرًا من رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

---

(١١٦) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٤٢؛ ابن حبان، السيرة، ص١٠٨.

(١١٧) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٣١؛ ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١٨٣؛ الطبري، التفسير، ج٣، ص٣٧٥ .

(١١٨) العواجي، مرويات الزهري، ص٤٦٣؛ ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٣٤٥؛ ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٤٣٣.

في الإقامة التي أردنا أن نقيم في الأموال فنصلحها، فأُمِرنا بالغزو(١١٩). بل ووقعت حادثة مشهورة كادت أن تُحْدِث قتالاً بين الطرفين – المهاجرين والأنصار– في غزوة المريسيع حيث انتصر فئاتٌ من كلا الطرفين ضد الآخر(١٢٠).

في سياق تتبع تطورات الأحداث بعد الهجرة، لا يمكن إغفال الكيانات اليهودية في المدينة – بني قينقاع والنضير وقريظة – فهي قبائل استقرت بالمدينة قبل الأوس والخزرج ، ويملكون قوةً عسكريةً واقتصاديةً كبيرةً، ويرتبطون بتحالفات وثيقة بالأوس والخزرج قبل الهجرة، واستمر أثر هذه التحالفات على الأوس والخزرج بعد إسلامهم، وكان أقوى هذه التحالفات ما كان مع ابن سلول. وعلى الرغم من أن هذه القبائل اليهودية ارتبطت بعقود صلح مع النبي ﷺ بعد استقراره في المدينة، إلا أنهم غير مأموني الجانب، وبَدَت منهم مواقف خطيرة.. بل إن بعض هؤلاء اليهود تظاهروا بالإسلام وأبطنوا النفاق لتتناغم أدوارهم مع أدوار منافقي أهل المدينة(١٢١).

أما عن تعامل النبي ﷺ ورد فعله تجاه ابن سلول تحديدًا، ومواقفه السابقة، فنشير في البداية إلى أن النبي ﷺ كان يدرك مكانة ابن سلول في مجتمع المدينة، وبقاء هذه المكانة

---

(١١٩) الواحدي، أسباب النزول، ص٦٠. والآية في سورة البقرة ١٩٥.

(١٢٠) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤١٥.

(١٢١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص١٠٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص٢٤٠.

عند قومه حتى بعد إسلامهم؛ ولهذا كان زعماء الخزرج كثيرًا ما يذكرون النبي ﷺ بمكانة ابن سلول قبل الهجرة ويعتذرون عن أفعاله، ويفسرونها بما يجده ابن سلول في نفسه من حقد وحسد؛ لأنه كاد يُمَلّك عليهم حتى جاء النبي ﷺ وسلبه ملكه.. كما يدرك أيضًا ما كان للأوس والخزرج من آثار مهمة في الأحداث، وما قدموه من الإرفاق والنصرة، فلم يشأ أن يقتل أو يهين أحد أكبر زعمائهم، فيعد ذلك عدم وفاء، وهو ما عبر عنه ﷺ بقوله: "إني أكره أن يقول الناس إن محمدًا قاتل حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم فقاتلهم".

وسنحاول تتبع ردود فعل النبي ﷺ تجاه مواقف ابن سلول المذكورة سابقًا مع محاولة تفسير هذه المواقف.

ففي غزوة بني قينقاع كان هؤلاء حلفاء أقوياء للخزرج وأسهموا في الدفاع عنهم ضد خصومهم وكما يقول ابن سلول: " منعوني يوم الحدائق ويوم بعاث من الأحمر والأسود"، فكانوا مصدر اطمئنان لهم، وتربطهم بهم مصالح مختلفة، وفي المقابل كان يهود بني النضير وبني قريظة حلفاء الأوس، فلم يكن من السهل استئصال يهود بني قينقاع، مع وجود يهود بني النضير وبني قريظة حلفاء أندادهم الأوس، فقبل النبي ﷺ وساطة ابن سلول فيهم، بل وأشارت بعض الروايات إلى أن النبي ﷺ هو الذي دعاه وحليفهم الثاني عبادة بن الصامت، ليحكما فيهم فيكون حكمهم مرضيًا للخزرج، وبذلك يضمن عدم ظهور ردة فعل الخزرج، ولعل ما يؤكد

هذا التوجه عند النبي ﷺ ومراعاته لهذا الجانب، وهذا الشعور التنافسي بين الأوس والخزرج في موقفهم تجاه حلفائهم من اليهود؛ أن النبي حين حاصر بني قريظة قامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت وهم حلفاء إخواننا الخزرج وهؤلاء موالينا.. فوافق في البدء على أن يرسل إليهم حليفهم أبو لبابة بن عبدالمنذر ليشاوروه فيما يصنعون ، ثم وافق على أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، وكان قوم سعد يوصونه أن يحسن إليهم ، ويذكرونه بصنيع ابن سلول ببني قينقاع، وهو في طريقه إليهم: "أجمل في مواليك وحلفائك..."(١٢٢). ومن المؤكد أنهم فعلوا ذلك لأنهم يستحضرون موقف ابن سلول من بني قينقاع.

وعن موقف النبي ﷺ من ابن سلول في غزوة أحد، كان هنالك على ما تقدم روايتان أولها: أن النبي ﷺ هو الذي رد ابن سلول ومن معه من اليهود لكونهم مشركين فيكون معذورًا بذلك، وأما الرواية الأخرى فلم تحدد هوية من معه وإنما حصرت عددهم بثلث الجيش؟ والراجح أن النبي ﷺ اكتفى بتبرير ابن سلول حين لم يُستجب لاقتراحه بعدم الخروج من المدينة لملاقاة قريش، وعمومًا لم تنقل المصادر أن النبي ﷺ عاقب ابن سلول على موقفه، وقد أراد عمر بن الخطاب معاقبة المنافقين بالقتل لموقفهم السابق فمنعه ﷺ قائلاً:

---

(١٢٢) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٥٠٦- ٥١١، ابن القيم؛ زاد المعاد، ج٣، ص١٢١.

أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟... إني نهيت أن عن قتل من قال: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله..(١٢٣)، ولا شك بأن انسحابه مبكرًا خير من مشاركته ثم انسحابه أثناء القتال. وكانت نتيجة غزوة أحد داعمة لموقف ابن سلول.

وفي غزوة بني المصطلق بلغ النبي ﷺ مقولة ابن سلول "لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، ولكن ابن سلول أنكر ذلك في البداية، فلما نزل الوحي بمقولته لم يعاقبه النبي ﷺ ورفض طلب عمر بن الخطاب حين أشار بأن يأمر عباد بن بشر بقتل ابن سلول فقال له: "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه "، وهذا التبرير من النبي ﷺ ليس الوحيد، وإنما كان يخشى لو قتله لهذا السبب أن يعد ذلك انتصارًا للمهاجرين على الأنصار، أو أن تثور حمية قومه الخزرج، ولعل أبرز شاهد على ذلك ما رواه البخاري لما وقف سعد بن معاذ من بني عبد الأشهل أمام رسول الله ﷺ وهدد بضرب عنق ابن سلول - بعد مقولته هذه - أخذت الحمية سعد بن عبادة سيد الخزرج، وقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ الله لا تقتله ولا تقدر على قتله.. وكاد الحيان أن يقتتلا(١٢٤).

لقد أدرك النبي ﷺ أن سبب مقولته كان أخطر من المقولة نفسها، وهو اشتعال نار العصبية بين المهاجرين

---

(١٢٣) الواقدي، المغازي، ج١، ص٣١٨.

(١٢٤) ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٤٣٣.

والأنصار، فالحمية أخذت من هو خير من ابن سلول، فقد أنشد حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الحادثة شعرًا وافق مقولة ابن سلول⁽¹²⁵⁾، لذا وجد أن ردة فعل ابن سلول منطقية حسب الموقف الذي أهاج الطرفين، وحسب معتقد ابن سلول ونفسيته.

لقد تصرف النبي ﷺ في الموقف بحكمة متناهية حين طلب من الجميع الرحيل، ووكل أمره إلى قومه الخزرج فقد اشتكى فعلته على قومه، فجاء أول رد فعل من ابنه عبدالله حيث طلب من النبي ﷺ أن يتولى التخلص من أبيه إذا ما أراد النبي ﷺ ذلك، فلما منعه النبي، وقف على باب المدينة ومنع أباه من دخولها إلا بإذن رسول الله ﷺ...⁽¹²⁶⁾؛ بل إن قومه الخزرج جعلوا بعد هذا الموقف إذا أحدث الحدث كان هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ويتوعدونه...⁽¹²⁷⁾، عندها ذكر النبي ﷺ عمر بن الخطاب بهذه النتيجة قائلاً: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته⁽¹²⁸⁾.

أما عن رد فعل النبي ﷺ تجاه موقف ابن سلول في حادثة الإفك، فقد ورد أن النبي ﷺ لم يعاقب ابن سلول على فعلته الشنيعة المؤلمة للنبي ﷺ باتهامه أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ

---

(١٢٥) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٣٣٥.

(١٢٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص١٥٨.

(١٢٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص١٥٨.

(١٢٨) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٣٣٧؛ الطبري، التفسير، ج١٢، ص١٠٩.

في عرضها، في حين أقام الحد على من شاركه هذا الاتهام وهم مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش(١٢٩)، والواقع أن هنالك روايات ذكرت أنه أقام الحدَّ عليه فعلاً(١٣٠)، إلا أن المشهور أنه لم يقم الحد عليه، وأورد ابن القيم عدة مسوغات لذلك(١٣١):

أولها: "أن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة"، والخبيث - يقصد ابن سلول- ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحد. وهذا التعليل - في نظر الباحث - ضعيف إذ لا يمكن للنبي ﷺ أن يتهاون في حد من حدود الله علنًا، أما كون الحد كفارة عن الجناة، وهو ليس أهلاً لذلك فمستبعد، فالحدود تقام على كل مستحق لها في الدنيا، أما في الآخرة فأمره إلى الله عز وجل...

والرأي الثاني: أنه كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.. والحد لا يثبت إلا بالإقرار أو بينة، وهو لم يقر بالقذف، ولا شهد عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين. وهذا التعليل أيضًا غير مقبول لأن النبي ﷺ كما في رواية البخاري استعذر على المنبر من ابن

---

(١٢٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٢٣٤.

(١٣٠) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٩، ص٢٣٧؛ ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٤٧٩.

(١٣١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣، ص٢٣٦.

سلول(١٣٢)، بل وجاء ذكر ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١٣٣).

والرأي الثالث: أن النبي ﷺ ترك حدَّه لمصلحة هي أعظم من إقامته كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا وهي تأليف قومه، وعدم تنفيرهم عن الإسلام فإنه كان مطاعًا فيهم رئيسًا عليهم، فلم تؤمن إثارة الفتنة في حدِّه. والتعليل الأخير لابن القيم وجيه جدًا؛ إذ لا يمكن تصور تحمل فئات من الخزرج رؤية زعيمهم، وسيدهم يجلد على رؤوس الأشهاد، وأمام نظرائهم الأوس فيعيرون بها، وربما يحيي الفتنة الخاملة بين الحيين، وهذا دليل واضح على قراءة النبي ﷺ الدقيقة للموقف، فنحن نعلم أن النبي ﷺ والمسلمين وافدون على المدينة معتمدين على قوة إيمان أهلها...، بل إنَّ ابنه عبدالله لما استأذن النبي ﷺ لقتل أبيه رد عليه بقوله: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا(١٣٤).

أما عن صلاة النبي ﷺ عليه واستغفاره له، ومنحه قميصه ليكفن فيه، فهنالك عدة مسوغات بعضها أوضحها النبي ﷺ، ففي رواية للطبري: أن ابن سلول في مرض وفاته هو الذي أرسل إلى النبي ﷺ، فلما دخل عليه قال ﷺ: أهلكك حب يهود، فقال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك

---

(١٣٢) ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٤٣٣.

(١٣٣) سورة النور، الآية ١١، انظر الطبري، التفسير، ج ٩، ص٢٧٧.

(١٣٤) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٣٣٧.

لتستغفر لي..!، ولم أرسل إليك لتوبخني، ثم سأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه، فأجابه(١٣٥)، فكان الموقف مؤثرًا، وربما أن النبي ﷺ وجد من ابن سلول رقةً وندمًا على مواقفه، وأنه في لحظة الاحتضار أقرب للتوبة، فوعده بما طلب، وهنالك شواهد لمواقف مماثلة من النبي ﷺ كموقفه مع عمه أبي طالب(١٣٦).

وثَمَّ تسويغ آخر هو أن عبدالله بن أبي بن سلول هو الذي طلب من رسول الله ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفنه به، وأن يصلي عليه ويستغفر له، ففعل النبي ﷺ وأعطاه قميصه(١٣٧)، وهذه الرواية محتملة ومرتبطة بسابقتها، ومكملة لها، فبعد موافقة النبي ﷺ طلب ابن سلول بإعطائه قميصه والاستغفار له ، جاءه ابنه عبدالله ليحقق مطلبه بعد وفاته. ولا يستبعد أن النبي ﷺ أراد تطييب خاطره وخاطر أخواته في أبيه.

وهنالك تسويغ ثالث أنه لما كُلم رسول الله ﷺ فيما فُعل بابن سلول قال: وما يُغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه(١٣٨)، وهذا

---

(١٣٥) الطبري، التفسير، ج٦، ص٤٤٠؛ قال ابن حجر معلقًا على الحديث: وهذا مرسلٌ مع ثقة رجاله، انظر، ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص٣٣٤.

(١٣٦) لما حضرت أبا طالب الوفاة حاول النبي إقناعه بالإسلام فأبى. ابن حجر، فتح الباري، ج٧، ص١٩٣.

(١٣٧) ابن حجر، فتح الباري، ج٣، ص١٣٨؛ الواحدي، أسباب النزول، ٢٦١ .

(١٣٨) الطبري، التفسير، ج٦، ص٤٤٠؛ الواحدي، أسباب النزول، ص٢٦٢.

التفسير قوي ومحتمل أيضًا، وقد مر بنا أن النبي ﷺ كان يدرك مكانة ابن سلول عند قومه مع نفاقه. وإن كان الرقم المذكور في الرواية لا يخلو من مبالغة، فأعداد المنافقين كانت تتقلص بحجم تنامي قوة المسلمين وظهورهم.

أما ابن حجر العسقلاني فيورد تعليلاً آخر له وجاهته، فيقول تعليقًا على رواية طلب ابن سلول من النبي ﷺ أن يصلي عليه: " وكأنَّ عبدالله بن أبي أراد بذلك دفع العار عن ولده وعشيرته بعد موته، فأظهر الرغبة في صلاة النبي ﷺ عليه، ووقعت إجابته إلى سؤاله بحسب ما ظهر من حاله، إلى أن كشف الله الغطاء عن ذلك"(١٣٩).

وينقل الزرقاني تعليلاً مهمًا عزاه للخطابي وابن بطال عن صلاة النبي ﷺ على ابن سلول واتِّبَاعه جَنازَتَه فقال: "إنما فعل ذلك لكمال شفقته على من تعلَّق بطرف من الدين، ولتَطْييب قلب ولَده.. الرجل الصالح، ولتأليف الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يُجب سؤال ابنه، وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سُبَّةً على ابنه وعارًا على قومه، فاستعمل النبي ﷺ سياسةَ أحسن الأمرين في السياسة.."(١٤٠)، ولعل النبي ﷺ أيضًا أراد بفعله هذا أن يَرفع الحَرَجَ عن الصَّحابي الجَليل عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ ابن سلول فلا يُعَيَّر بعد وفاة أبيه بالنفاق.

---

(١٣٩) ابن حجر، فتح الباري، ج٨، ص٣٣٤.

(١٤٠) الزرقاني، المواهب اللدنية، ج٣، ص١٢٧.

وعمومًا لقد كان ابن سلول ظاهرًا يُعَدُّ من المسلمين، وكان النبي ﷺ يُصَلِّي على من أظهر الإسلام ومنهم ابن سلول. أما الاستغفار له فهو خيرُ دليل على ما أشارت إليه الدراسة من مكانة ابن سلول في المجتمع المدني، وأن له آثارًا إيجابية محدودةً على الرغم من آثاره السلبية الغالبة عليه، حتى جاء النهي بذلك.